الحب

ملخصة من كتاب في هذا الموضوع للعالم هنري فنك بقلم نسيم افندي برباري
تابع ما قبله

والصداقة قديمة جدًّا بل انها كانت اقوى عند اليونانيين والرومانيين القدماء مما هي عندنا الآن حتّى قاربت عندهم درجة الشغف . قال فولتير في قاموسهِ الفلسفي " ان روايات القدماء عن الصداقة والوفاء لامثيل لها عندنا وقد فقدنا هذين الخلقين حتّى انك لا تجد لها ذكرًا في اشعارنا وروايانا " وقد علّل روشفوكولد ذلك بقولهِ " ان اغلب النساء لا يهتممنَ بالصداقة اذ يرينها تفهةً بعد ان ذقنَ حلاوة الشغف "

الشغف * هو اتم انواع الحب واقواها بل لو جمعت كلها معًا لما عادلت جزءًا صغيرًا منهُ . واوجه الشبه بينهُ وبين محبة الام اربعة : الاول الميل الى تكران النفس والثاني الغيرة والثالث المباهاة بمحاسن المحبوب والرابع الافتخار بالحصول عليهِ . والاول متساوٍ في الاثنين اما الثلاثة الباقية فهي في محبة الام دون ما هي في الشغف بكثير . نعم ان الام قد تغار اذا رأت ان ولدها يحب اباهُ او نسيبة اكثر منها ولكن ابن ذلك من غيرة الرجل التي قد تحملهُ على ارتكاب القتل . والام قد تتطرف في المباهاة بجمال ولدها ومناقبهِ لكنها لا تبلغ معشار ما يبلغهُ العاشق الولهان . ثم ان الام تحب كل اولادها في وقت واحد ولا يخفى ان مقدار المحبة محدود ولذلك كانت محبتها مقسمة عليهم كلهم بخلاف العاشق الذي محبتهُ كلها محصورة في شخص محبوبهِ . والام تحب جزءًا من لحمها ودمها اما المشغوف فيحب شخصًا غريبًا ولسان حالهِ يقول

نسب اقرب في شرع الهوى بيننا من نسبٍ من ابويْ

وهذه هي العجوبة الشغف وآيتهُ الكبرى . وهو اكثر العواطف ائتلافًا مع التعاليم الادبيّة العالية لخلوهِ من محبة الذات والتشيع والمحاباة . فان الوالدين يحبون اولادهم البلهاء اكثر من اولاد جيرانهم النبهاء اما العاشق فينظر الى معشوقهِ نسبهِ لا الى نسبهِ حتّى انهُ يهوى ابنة عدوهِ وينضلها على اختهِ . هذا ما يفعلهُ الشغف وهو بذلك عضد للانتخاب الطبيعي بانتخابهِ من كان اكثر موافقة للبقاء في جمال الوجه واعتدال القد وحسن الاخلاق بخلاف الحب المبني على القرابة الدمويّة الذي لا يميز بين الغث والسمين بل يميل بصاحبهِ الى القبيح والمليح على حدٍّ سوى . وعدا ذلك فلولا الشغف لازدادت الزيجة بين الاقارب وخسر العالم فوائد

الزيجة بين الاباعد التي هي اعظم مكملات الجنس البشري ومصلحات حاله

وقد يظن القارىء لاول وهلة ان الشغف شعورٌ بسيط ولكنه بالحقيقة مركّب من عدة عواطف واميال متباوتة في شدّة الظهور و بعضها كان معدومًا بين القدماء ثم ظهر تدريجًا سائرًا مع التمدن الحديث وله لوازم عديدة متصلة به وقد ذكر بعضهم منها احد عشر نوعًا وهي

(١) الانتخاب الفردي او الشخصي . فان كثيرين من المتوحشين يستبدلون نساءهم كلما رأوا اجمل منهنّ بخلاف المتمدنين فان الواحد منهم ينتخب زوجة ولا يبدلها بغيرها الّا نادرًا

(٢) الغيرة فان المحب الحقيقي يغصرحبة على محبوبته و يطلب منها ان تقصر حبها عليه كقول الشاعر وايمان قلبي لايميل الى الشرك

(٣) الغيرة . وقد عبّر عنها بعضهم بملح الحب لانها تكون حسنة الى حد معلوم فاذا زادت عليه صارت مكروهة

(٤) الدلال والصد وهما من صفات النساء خاصة واذا صاحبا الشغف فهما بسبطان فطريّان

(٥) الشهامة . وهي من صفات الرجل التي تدفعه الى ركوب المخاطر وتجشم المشاق ارضاء لمحبوبته

(٦) الايثار على النفس وهو في اغلب المسائل ناتجًا اما عن المبالغة في الشهامة او عن كره للحياة عند ما ييأس المشغوف من الحصول على محبوبته

(٧) الشعور المتبادل . قال بعضهم "اذا اردت ان تحزن مع الحزانى فيكفيك ان تكون انسانًا واذا اردت ان تفرح مع الفرحين فعليك ان تصير ملاكًا" واذا صحّ ذلك فاهل الحب بشر وملائكة لانهم يشعرون بعضهم مع بعض في الاتراح والافراح . وقال امرسون الكاتب الاميركي الشهير اذا افترق العاشقان سأل كلٌّ نفسه عما اذا كان الآخر يرى ما يراه هو و يشعر بما يشعر به

(٨) الفخر في الظفر . و يشترك في ذلك العاشقان اذ كل منها يفتخر بحصوله على الآخر و بانهُ محبوب منهُ دون سائر الناس

(٩) المغالاة والتطرّف . فان عين العاشق ميكرسكوب تكبر محاسن محبوبه و بهذه المغالاة تقوم طلاوة الشعر ومحاسنهُ

(١٠) فقد الشعور . فان المشغوف لا يشعر بشيء ما في الدنيا سوى صورة محبوبه التي تشغل عقله وتكون عنده الكل في الكل

(١١) محبة الجمال . وهي اشدّ ظهوراً من الجميع . قال شكسبير ان الجمال يطغى الناس اكثر من المال . واذا سمع رجل ذكر فتاة تبادر الى ذهنه قبل كل شيء أن يسأل عمّا اذا كانت جميلة او غير جميلة . قالت ما دام دو ستايل الكاتبة الفرنسويّة الشهيرة انها كانت تفضل ان تكون جميلة على ان تكون كاتبة

هذا وعسى ان يكون النوع الثاني عشر من لوازم الشغف الذي لم يهتدِ الناس بعدُ اليه محبة الصحة الجيدة وبذلك تمتنع النساء عن الازياء المضرة التي اعدمتهنّ الجمال واعتدال القوام

وشغف الحيوانات اقرب الى شغف المتمدنين منه الى شغف المتوحشين . فقد اثبت دارون وغيرهُ من الثقاة ان كثيراً من الحيوانات البريّة ولاسيما الطيور يعيش مع زوجته طول حياته وقد ذكروا حوادث كثيرة عن قتل احد الزوجين وندب الآخر له زمناً طويلاً كل ذلك مما يثبت ان في هذه الحيوانات شغفاً يفوق شغف كثيرين من المتوحشين . وهي ليس اقل ظهوراً فيها منه في المتمدنين فقد اثبت الطبيعيون كدارون وغيره ان ذكور انواع كثيرة من الطيور تجتمع مع اناثها برهة طويلة تغرد وتلعب العاباً مختلفة ثم تفترق . وعندها غيرة شديدة تحمل ذكورها على القتال والانثى تنظر الى هذه الحرب نظر المتفرج وتذهب مع الغالب ولا تهتمّ اقل اهتمام بالآخر . وكثيراً ما تُرى عظام الوعول وقد اشتبكت قرونها معاً اثناء القتال فمات الغالب والمغلوب وبقيت عظامها وقرونها الى يومنا هذا . والانتخاب الفردي يظهر بين الاناث اكثر من الذكور فقد ذكر اودبون العالم بطبائع الطيور الذي ساح كثيراً في آجام اميركا ودرس طباع طيورها ان انثى نقّار الخشب يتبعها عدة من الذكور يغازلنها ويلعبن امامها الى ان تختار واحداً منهنّ . اما الذكور فقلما يهمها امر هذا الانتخاب لانها تهوى اول انثى تراها

ويطول بنا الكلام لو اردنا استيفاء المقال على شغف الحيوانات وما يستعمله الذكور من الحيل كالغناء والتباهي بالالوان والرقص لكي تسحر به قلوب الاناث وما تلجئ اليه الاناث من التيه والدلال لتثير غرام الذكور . وخلاصة القول ان الحيوانات قد شابهت البشر في المحبة قبل الزواج وبعده وفي تعدد الازواج وتعدد الزوجات وتفردها

الشغف بين المتوحشين * لاغرو اذا كان الشغف غير موجود عند المتوحشين فان كثيراً من العواطف التي ظهرت في الانسان قبل الشغف كالرحمة والشفقة لا وجود لها

عندهم . بل كيف يتيسّر للحب ان ينمو في قلوب الرجال منهم وقد اشتهروا بالقساوة او بقلوب النساء وهنّ لا يرين من الرجال الّا سوء المعاملة . روى لاتورنا ودي شاليه وموتيرو وغيرهم من رُوّاد افريقية انهم لم يروا ادنى اثر " للشغف " بين سكان اواسطها

ويتمّ الزواج عند المتوحشين بطريقة من ثلاث الاسر والشراء والخدمة . ففي الاولى يخطف الرجل زوجة له من قبيلة غير قبيلته وهذه العادة قد انتسخت عند المتمدنين ولكن آثارها لا تزال عند بعضهم وهي رسوم يجرون عليها وذلك ان العريس يذهب بقومه مسلحين ويتظاهرون كأنهم ذاهبون لخطف العروس . وفي الثانية يشتري الرجل زوجته وهذه العادة شائعة بين بعض المتمدنين ايضاً . وفي الثالثة يخدم الرجل ابا الفتاة مدة معينة ثم يتزوّج بها جزاء خدمته

اما بنيّة لوازم الشغف كالانتخاب الفردي ومحبة الجمال والغيرة والدلال والصد فهي موجودة عند المتوحشين بمظهر غير كامل النمو . ذكر بُلسّ ان العروس في قبيلة اوران سكاي تهرب وقت العرس الى الآجام وتختفي فيها ثم يذهب العريس يفتش عنها واذا لم يحظَ بها في خلال مدة معينة التزم ان يتركها الى الابد . وهذا يشبه الانتخاب الفردي فان الفتاة اذا كانت لا تهوى خطيبها امكنها ان تختبئ في مكان لا يهتدي اليه وبذلك تتخلص منه

ومحبة الجمال اقل ظهوراً وشيوعاً عندهم واكثر التفاتاً على ان الاناث يتفنّنَ من الرجال مَن كان قوي الجسم لكي يحميها من الاعداء بخلاف الرجال الذين في نفوسهم صورة من الجمال تختلف بحسب اذواق قبائلهم المختلفة . اما الغيرة عندهم فهي للحصول على الفتاة ليس الّا . وتفرد الزوجات وتعددها شائعان بينهم والفتيات يظهرنَ من الفنج والتيه والصد والدلال ضروباً وفنوناً فيتفنّنَ في الحراج ويقاومنَ خاطبيهنّ اشد المقاومة ويتباكينَ ويتفنّنَ شعورهنّ الى غير ذلك

وقبل الكلام على الشغف بين المتمدنين نذكر طرفاً من تاريخه بين الامم الغابرة كالمصريين والعرب واليونان والرومان . قال الدكتور جورج ايبرس الاثري الجرماني الشهير " اذا قسنا تمدّن الشعوب بعلو منزلة المرأة عندهم كان المصريون في الدرجة الاولى بين الامم القديمة في التمدن " ونعلم مما رواهُ هيرودوتس وغيرهُ من المؤرخين ان نساء مصر لم يكنّ يتحجّبنَ كاليونانيات بل كنّ يشترينَ حوائجهنّ بانفسهنّ ويعملنَ اعمالاً عديدة يظهر منها انهنّ كنّ متمتعات بحرية وامتيازات قلما تشاهد بين نساء تلك الايام . ولا يمكننا ان نحكم بالتأكيد على حالة الحب عندهم نظراً لعدم وجود كتب ادبية وشعرية كالكتب التي

ابقاها اليونان والرومان ولكن اغلب الثقاة على ان الحب كان عند المصريين في درجة متأخرة

وقد جمع الآريون القدماء (الذين منهم سكان الهند واوربا) النقيضين في الحب وذهبوا فيهِ كل مذهب وخصوصاً سكان الهند الذين جروا على سنة تفرُّد الزوجات واحلُّوا نساءهم منزلة عالية وكانوا يسمحون لهنَّ بمحادثة الرجال والاختلاط بهم حتَّى دخلت الديانة البرهميَّة وكان من امرها انها سنَّت لهم سنَّة تعدُّد الزوجات وحرق الارملة حيَّة مع جثة زوجها وعلمتهم ان المرأة سبب كل الشرور وانهُ يجب كسر ارادتها واذلالها واحتقارها. حكي عن احد البراهمة انهُ تزوَّج بمئة وعشرين امرأة وحكي عن كثيرين غيرهُ انهم تزوجوا عائلات باسرها فكان الواحد منهم يتزوَّج بجميع اناث العائلة الاخوات والبنات والعمات والخالات وبنات العم وبنات الخال الخ . وذكر سوسرات السائح في رحلتهِ انهم يعتقدون بان تعليم النساء الحصنات القراءة عيب وقال لانورنوان الهنود بقوا سائرين بحسب هذه التعاليم الى زمن غير بعيد رغماً عمَّا طرأ عليهم من التغيرات

قلنا ان الآريين قد جمعوا النقيضين في الحب فاساءوا معاملة المرأة كما تقدَّم وبذلك اماتوا شعائر الحب ثم زادهم من الجهة الاخرى يتغزلون بهنَّ في اشعارهم ويصفون اليه والدلال وفعل الحب والفراق واللقاء . ويظهر ان هذه العواطف كانت محصورة بين اهالي الطبقة السفلى وبين البايادير او المغنيات والرقاصات في الهياكل . وقد انتهى الى هذه الايام كتاب شعري أُلِّف في القرن الثالث للمسيح تقتبس منهُ الجمل الآتية دليلاً على باقيهِ

"هو لا يرى الاَّ وجهها وهي ايضاً ثملة بخمرة محاسنهِ وكل منهما مغرم بالآخر كأن لا رجال ولا نساء في العالم سواهما"

" قد خسرتِ ايتها الابنة الجاهلة ببادرتكِ الى الصفح عن محبوبكِ فلو تركتهِ قليلاً لرأيتهِ يترامى على اقدامكِ ويتذلل لديكِ "

" رويدك ايها الطاهي الماهر خفف قليلاً من غضبك ولا تغتظ من النار لانها دخنت ولم تضطرم فانها لم تفعل ذلك الاَّ لتتمتع بمسك انفاسك "

ولم يوجد الشغف عند اليونان رغماً عما وصلوا اليهِ من التمدُّن بخلاف الحب الزوجي الذي لنا عليهِ امثلة كثيرة كحب اندروماك لزوجها هكتور وانتظار بنلوب لزوجها عولس ومحبة الستس التي افتدت زوجها بنفسها

وكانت نساء اليونان منجبات وقد حرمن وسائط التعليم ومعاشرة الرجال بل كان البنات ملكاً لوالدهنَّ يزوجهنَّ بمن شاء رغماً عن ارادتهنَّ ولعلَّ هذا ما حمل الرجال في تلك

الايام على اتخاذ حظايا (وهنّ المدعوات هيَرا) امتزنّ بالتهذيب وحسن المعاشرة . وقد اشتهر من هؤلاء الحظايا عددٌ ليس بقليل كاسباسيا حظية بركليس القائد السياسي الشهير وديوبينا التي اعتبروها نبيّة وقال عنها افلاطون انها دعت سقراط الى عمل اول خطاب وافٍ عن الحب ومدته بآرائها في ذلك

الشغف عند الرومان * كانت المرأة عند الرومان في منزلة عالية اشبه بمنزلتها الحالية عند الاوربيين . ولصاحبة البيت الحكم المطلق في تربية اولادها وترتيب بيتها وكان النساء يحضرن الولائم ونوادي التمثيل والالعاب . وكانت العزوبة اثمًا على الرجال حتّى انهم فرضوا على الاعزب غرامةً وكافأوا اصحاب العيال الكبيرة بامتيازات جمة . غير ان الحب لم ينمُ بينهم وذلك لانهُ لم يكن للبنات ادنى اختيار في قبول طالبيهنّ او رفضهم وقد حصر الوالدون هذه السلطة فيهم وزادوا عليها انهم سنّوا شريعة تخوّلهم الحق في فسخ زواج بناتهم ولو كان لهنّ اولاد وكنّ عائشات براحة مع ازواجهنّ

غيران اول تباشير الحب الحديث ظهرت في اشعار شعراء الرومان كاوفيد وهوراس وفرجيل فانهم اول من وصف الحبّ على الصورة التي نعهدها وذكر الشهامة والمغالاة والفراق واللقاء . ولهم التقدم في ذلك على شعراء هذه الايام

ترجمة رنان

نعى الينا البرق عالمًا من اكبر علماء فرنسا ان لم يكن من اكبر علماء العصر وهو اللغوي المدقق والفيلسوف المحقق والكاتب الطائر الصيت ارنست رنان تُوفي صباح اليوم الثاني من شهر اكتوبر (ت ١) الماضي في مدرسة فرنسا (كولاج ده فرنس) بمدينة باريس . وقبل موته بأربع ساعات فتح عينيهِ وخاطب زوجتهُ قائلاً لماذا انتِ حزينة فقالت لانني اراك متألمًا فقال اصبري وسلمي فانهُ لا بدّ انا من الخضوع لنواميس الطبيعة التي نحن من مظاهرها . فانا نهلك ونزول ولكن السماء والارض تبقيان وتكر الايام والسنون الى ابد الدهور قال ذلك ولم يعد يعي على شيء الى ان فاضت روحهُ وكأنهُ جمع خلاصة آرائهِ وعقائدهِ في هذه الكلمات الوجيزة

* وكانت ولادة رنان في السابع والعشرين من شهر فبراير (ش) سنة ١٨٢٣ في بلد صغير على شاطىء برتاني احد اعمال فرنسا وينتمي من ابيهِ وهو حدث فقامت امهُ على تربيتهِ